من ذاكرة ديالى (2003-1968)

سنوات الخوف وأفق الخلاص

بعقوبة/ المدى

مشهد (1)

المكان هو حي فقير بمدينة صغيرة في محافظة ديالى.. والزمان هو وقت العصر من يوم 17- تموز- 1968.. جاء رجل يقود دراجة هوائية الى جمع من الرجال كانوا واقفين يتساجلون حول الانقلاب الحاصل فجر ذلك اليوم، ويطلقون النكات عن القائمين به، وقال لهم بنبرة جافة: - أتدرون؟.. البعثيون هم الذين تسلموا السلطة. - لا..!! صادمة، مختنقة، خانقة انطلقت هذه الـ(لا) من حناجر أولئك الرجال الذين استعادوا، لاشك، في أذهانهم، في جزء من الثانية، الشريط الدموي الرهيب لعام 1963، لتتلوها كلمات أخرى كأنها تستشف ما سيحدث. - "مصيبة.. كارثة.. مأساة".. وتلاحقت الشتائم أيضاً.. سأل طفل في العاشرة، كان يقف هناك، اباه: - "بابا.. يعني شنو بعثيين؟". أمسك الأب بكتف ابنه وقال له: - ستعرف فيما بعد.. وسترى. توجس الطفل من هذه النبوءة الغامضة، وقيض له فيما بعد أن يعرف، وأن يرى..

1970-69-68

وعود الانقلابيين كانت كبيرة لكن الحقائق على الأرض كانت تقول شيئا آخر. وقبل أن يبدأوا بتصفية الآخرين انبرو التصفية بعضهم بعضاً.

في الأيام الأولى التي أعقبت الانقلاب أطلقوا سراح السجناء السياسيين، وبعد ذلك، في خضم المؤامرات داخل القيادة الجديدة، بدأت أولى حالات اعتقال الناوئين من القوى الوطنية.

ففي عام 1970 شنوا حملة اعتقالات واسعة ضد الشيوعيين وعذبوهم في السجون نفسيا وجسديا.

استدراك..

كان لذلك الطفل خال ينتمي الى حركة القوميين (الناصريين) سجنوه بتهمة إطلاق النار على عضو في حزب البعث ليلا وتبين بعد حين أن الحادثة لم تكن سوى مسرحية سخيفة وردية وكان هناك جار يسكن لصق بيت ذلك الطفل، قيل إنه شيوعي، غيبوه في معتقل ما بضعة أشهر، وبقي الطفل يتذكر ذلك الجار الذي أهدى له ذات مرة - عندما نجح من الصف الثاني الى الصف الثالث الابتدائي - مجلة مصورة (بلغة أجنبية) وقلم حبر صغيراً.

عود إلى 1970

في هذه السنة، صدر بيان 11 آذار الذي تضمن مبادئ أساسية لإعطاء الأكراد الحكم الذاتي، وبدأت أولى منظمات الحزب الديمقراطي الكردستاني تتخذ لها مقرات بالافتات علنية في مناطق ديالى المختلفة.

1973-72-71

استمرت المضايقات والاعتقالات ضد الشيوعيين وأصدقائهم. وفي 1972/6/1 أعلن أحمد حسن البكر تأميم نفط العراق فخرج البعثيون بتظاهرات أطلقوا خلالها النار بكثافة في الهواء في عملية استعراض للقوة أمام الحركات الوطنية. وفي 1973/10/6 اندلعت حرب تشرين على الجبهتين المصرية والسورية وانطلقت وحدات عسكرية من المحافظة باتجاه جبهة الحرب في سوريا خلال أيام المعارك المحتدمة.

ومنذ عام 1972 بدأت المفاوضات بين قيادة البعث وقيادة الحزب الشيوعي العراقي لإقامة تحالف جبهوي.

1974..

جرى توقيع ميثاق الجبهة الوطنية بين الحزبين (البعث والشيوعي)... في الوقت نفسه فشلت المفاوضات بخصوص منح الأكراد الحكم الذاتي فالتحق عدد كبير من أعضاء الحزب الديمقراطي الكردستاني بالثورة الكردية المسلحة التي تجددت بقيادة الراحل مصطفى البارزاني في الجبال. ونزحت عوائل كثيرة، ولاسيما من مناطق خانقين وجلولاء وكفري الى داخل إيران هرباً من بطش الحكومة وبقوا هناك شهوراً طويلة يسكنون الخيام ويتلقون المساعدات الدولية.

1975..

في قمة الجزائر، وبصفقة بين صدام حسين وشاه ايران، أبرم الاتفاق الشهير بين إيران والعراق، ومعه انحسر مد الثورة الكردية. وبقرار عفو من الحكومة عاد أفراد وعوائل كثيرة إلى مناطق سكناهم. وأيضا بدأت خطة النظام البعثي بتعريب المناطق ذات الأغلبية الكردية والتركمانية مثل خانقين وجلولاء والسعدية فجاءوا بعوائل من جنوبي العراق ووسطه للسكن في هذه المناطق، ومنحوها مغريات مادية، في محاولة لتغيير الواقع الديموغرافي لها.

1978/77/76

تواصل عمل الجبهة الوطنية على الرغم من أن المضايقات ضد الشيوعيين لم تنته حتى أن قسماً من ملاكاتهم طالب بالانسحاب من الجبهة. وتم اللجوء إلى العمل السري والاختفاء والسفر. وخلال هذه المدة صدر قرار بإعدام عدد من الشيوعيين بحجة تكوين تنظيمات داخل الجيش ونفذ القرار على الرغم من الاحتجاج الدولي في حينه.

1979..

قاد صدام حسين انقلاباً داخلياً ضد (رفاق) الأمس وأزاح البكر عن السلطة وأعلن نفسه رئيساً للجمهورية وقائداً عاماً للقوات المسلحة..

وفي الوقت نفسه أعدم ما يزيد على سبعين من ملاكات وقيادات حزب البعث بحجة التآمر ومن ضمنهم من كانوا من سكنة محافظة ديالى (منهم ماجد العامراني).. وخلال هذه السنة تم اعتقال مئات وآلاف من الشيوعيين وأجبروا على كتابة تعهدات تقضي بتخليهم عن العمل السياسي قبل أن يصار الى إطلاق سراحهم. كذلك بدأت أولى الاعتقالات للمنتمين الى حزب الدعوة.

1980..

نشطت الأجهزة الأمنية التابعة لنظام صدام وتمكنت من اعتقال آخرين من المنتمين إلى الحزب الشيوعي وحزب الدعوة وأعدامهم.

وفي أيلول بدأت الحرب العراقية - الإيرانية تحت ذرائع شتى معروفة وخلال ذلك ألحق الأذى بالمناطق الحدودية في المحافظة ولاسيما خانقين ومندلي. وتعرضت فيهما الدور والبساتين الى الدمار. وتحولتا إلى مدينتي اشباح بعدان كانتا مكتظتين بالسكان وعامرتين.

مشهد (2)

الطفل الذي أنبأ أبوه بأنه سيعرف وسيرى.. كبر الآن وأنهى دراسته الجامعية واقتيد إلى خنادق الحرب فعرف حتى تلك اللحظة كثيراً، ورأى..

عرف أن العراق مقود على وفق خطة جهنمية إلى الخراب، ورأى أصدقاءه يعتقلون ويعدمون ويقتلون في الحرب. وأنه بحكم المصادفة أو الحظ أو إرادة الله لم يعتقل بعد، ولم يعدم ولم يقتل على الرغم من وجوده في الخطوط الأمامية من جبهة الموت.

قبل بدء الحرب بأشهر كان يحضر مباراة بكرة القدم في ملعب الشعب بين فريق يشجعه وآخر منافس..

يذكر أنه كان متوتراً فنزل المدرجات من صفه الأخير، تاركاً أصدقاءه الثلاثة هناك، إلى الصف الأمامي، حتى إذا أحرز فريقه هدفاً حاسماً التفت نحو أصدقائه فرحاً يهتف لهم فراهم ينزلون المدرجات قافزين يصرخون ليتعانقوا جميعاً كتلة جسدية واحدة.

بعد سنين طويلة سيحكي لابنه عن ذلك المشهد فيفاجئه الابن بسؤال بريء قاس:

بابا.. وأين هم أصدقاؤك الآن؟

سيحس بتنمل في داخل رأسه، ويقول بارتباك:

- لا أدري!

غير أنه كان يدري.. كان يدري أن أولهم قتل في الحرب ولم يكن مؤمنا بها. وثانيهم اعتقل وأعدم بتهمة الانتماء إلى حزب معارض، ولم يكن منتميا إليه، وثالثهم مات إثر مرض عضال في أثناء الحصار، وبسبب الحصار.

استدراك..

الشيوعي القديم الذي أهدى لذلك الطفل مجلة مصورة وقلم حبر صغيراً غادر العراق مبكراً وأمضى سنين عديدة في روسيا وعاد في عام 1977 إلى العراق.. وفي عام 1978 وجدوه مقتولاً وجثته مرمية في منطقة من ضواحي بغداد.. أتى رجال الأمن إلى أهله وسألوهم:

تعرفون من قتل ابنكم؟ ألكم أعداء؟

قالوا: لا نعرفا ولا أعداء لنا!!

غير أنهم كانوا يعرفون.. وكان لهم أعداء!

1983-82-81

تصاعدت وتيرة الاعتقالات والإعدامات بين صفوف الشيوعيين وحزب الدعوة وقام البعثيون باغتيالات علنية في الأسواق لرافضي الحرب ومنهم (فاضل شلبة) الذي قتل في بعقوبة أمام مرأى الناس.

في الوقت ذاته كان الآلاف يقادون إلى محرقة الحرب قسراً جنوداً مكلفين أو احتياطاً، أو مدنيين زجوا ضمن الجيش الشعبي. وكانت الجثث تدخل المدن بالعشرات والمئات ملفوفة بالعلم الوطني.

1986-1985-1984

جرى إعدام خمسة وخمسين شخصاً منتمين إلى الحزب الشيوعي من سكنة ديالى دفعة واحدة بينهم ثلاث نساء. كما نفذ بالهاربين من الجيش حكم الإعدام بصورة علنية في الأماكن العامة من قبل أعضاء حزب البعث.

1987..

خلال الاحتفال الليلي بما يسمى (يوم المحافظة) في 1987/9/7 تعرض مسؤولو حزب البعث إلى محاولة اغتيال ومنهم (مزبان خضر هادي) وقال شهود عيان أن المسؤولين، أولئك، ذابوا بغتة في الظلام، وتواصل إطلاق النار في الهواء وهرب الناس في كل اتجاه، بينما كشف ضوء النهار التالي عن مئات من الأحذية والشحاطات والنعال متروكة على طول الطريق. وخلال هذه السنة بدأت حملة الأنفال سيئة الصيت ضد الشعب الكردي.

1989-88

استؤنفت حملة الأنفال وتعريب المناطق الكردية، وفي يوم 1988/8/8 انتهت الحرب وخرج أهل ديالى في احتفالات عفوية مستبشرين بالآتي بعد أن اعتقدوا بأنهم جعلوا ذلك الفصل الدامي الكالح وراءهم.

1990..

احتل الجيش العراقي الكويت في 8/2، وبدأ الحصار القاسي ضد الشعب يوم 8/6.

1991..

في 1/17 شنت قوات التحالف بقيادة أميركا حربها لإخراج القوات العراقية من الكويت، وخلال أيام الحرب استقبلت ديالى آلافاً من العوائل البغدادية الهاربة من القصف في بيوتها، ومع انتهاء الحرب في بداية شهر آذار تأججت انتفاضة الشمال والجنوب ضد نظام الحكم، وخلال ذلك سقط قضاء خانقين وكفري بيد الثوار الأكراد. وكانت الانتفاضة النازلة جنوبا تقترب من جلولاء والسعدية عندما أدى تغير حسابات الغرب الى دعم سلطة صدام حسين وإنهاء الانتفاضة.

1995-94-93-92

وتلك هي أقسى سنوات الحصار الاقتصادي المفروض من قبل الأمم المتحدة على العراقيين شعبا (لا حكومة).. شحت المواد في الأسواق وارتفعت أسعارها أضعافاً مضاعفة. ولاسيما الغذائية منها، واستمر تهجير العوائل الكردية من خانقين وجلولاء والسعدية وكفري إلى محافظات أخرى كالأنبار وغيرها وشرع البعثيون بحملة اعتقالات واسعة ضد القوى الوطنية، ومعهم تم اعتقال عدد من رجال الدين السنة والشيعة. كما جرى إيقاف 18 من أئمة جوامع السنة عن عملهم في إمامة الناس وإلقاء خطب الجمعة...

وأيضاً توسعت زراعة الحقول بمحاصيل الشلب والحنطة والشعير مما أدى إلى قطع المياه عن كثير من الأنهار الصغيرة التي تسقي القرى من أجل سقي الحقول المذكورة آنفاً التي يملكها في الغالب مسؤولو الحزب الكبار والمتنفذون والمقربون من السلطة الحاكمة.. كما صدر قرار بقطع أذان الهاربين من الخدمة العسكرية ونفذ القرار بكثير منهم. وسحبت البطاقة التموينية من عوائلهم.

1996

بدء العمل ببرنامج النفط مقابل الغذاء.

1999-98-97

توسعت ميليشيات ما يسمى بفدائيي صدام الذين قاموا باعتقال وتعذيب من يعتقدون أنه من مناوئي النظام. كما نفذوا حكم قطع رؤوس عدد من النسوة بتهمة الزنا في مدينة بعقوبة.

2002-2001-2000

راحت أميركا تعد العدة لإسقاط النظام واحتلال العراق.. وفي هذه السنوات وسعت قيادة البعث من فروعها الحزبية حتى غدت ستة فروع في ديالى، قامت برج عشرات آلاف التلاميذ والطلبة ضمن تنظيمات هذا الحزب وقسر الآلاف على أداء (قسم العضوية). وكونت ما يعرف بـ (جيش القدس) بعد أن اقتيد الآلاف من المواطنين رغما عنهم إلى معسكرات التدريب، وتواصلت التظاهرات المؤيدة لنظام صدام على طول الشهور والتي كانت تنظم من قبل منظمات حزب البعث، ويجبر المواطنون ولاسيما الطلاب على الخروج فيها. في حين تدخلت قوات الطوارئ لتفريق تظاهرة عفوية حاشدة للشباب بالهراوات خرجت تهتف لمنتخب شباب العراق الفائز ببطولة شباب آسيا لكرة القدم التي أقيمت في طهران في عام 2000!

2003

سقط نظام صدام حسين واختفى البعثيون من الواجهة، وإلى الأبد.

مشهد (3)

ذلك الأب الذي قال لابنه في عام 1968 إنه سيعرف وسيرى... بلغ في عام 2003 من الكبر عتيا. وطوال المدة الماضية بقي يحلم بشيئين. كان يخفي أولهما وهو أن يرى نهاية صدام حسين، وكان يجهر بالثانية وهو أن يذهب حاجا إلى مكة المكرمة.

في يوم 2003/12/14 عندما قيل له أنهم القوا القبض على صدام اقترب من التلفزيون بعينيه الكليلتين وراح يصفق بكفين معروقتين واهنتين ويتلفظ بكلمات مبهمة لم يميز منها الابن سوى كلمة (خلصنا، خلصنا!!).. هو الذي لم يصفق أو يهتف في حياته لشيء أو لأحد، وقد أدرك الآن أن حلمه الثاني سيتحقق أيضاً ما دام أزيلت العقبة، وأنه سيحج حتماً إلى بيت الله الحرام.

في المدى

تحية للشهيد نقيب الشرطة مصلح قدوري ويس السامرائي

بطل من هذا الزمان

حسين التميمي

محمد طفل صغير لم يبلغ العاشرة بعد، كان معتاداً كل يوم على قبلات ابيه ومداعباته ومن يراهما معا وهما يضحكان او يمازح احدهما الاخر يخطر بباله انهما توأمان روحيان متوافقان في كل شيء على الرغم من فارق العمر، لكن سعادتهما كانت كثيراً ما تنغص حين يتم استدعاء الاب الى علاج حالة مستعجلة، والحالة المستعجلة لا تمثل هنا مريضاً ما بل قنبلة خطرة تهدد دائما بتدمير كل ما حولها، لكن الاب كان دوماً يمتلك من الثقة بالنفس والشجاعة ما يجعله قادراً على نزع فتيل الشر في اللحظات المناسبة. وغالبا ما كان يعترف لأصدقائه بأن ثواني قليلة كانت تفصل بينه وبين مريضته الموقوته القاتلة. لذا كان الزملاء ينصحونه بترك هذه المهنة لأنها ستودي بحياته ان عاجلا او آجلاً. لكنه كان يقول لهم: ان مت انا فأنا واحد، لكن إذا انفجرت القنبلة هكذا فجأة فسيموت من الابرياء كثيرون وقد كان محقاً فيما ذهب إليه فالشر الموقوت كان يترصد الجميع ولا يستثني امراة او عجوزا او طفلاً وغالبا ما كانوا يستدعونه لتفكيك عبوات الشر في المدارس التي تعج بالرياحين من أقران صغيره محمد، لكن عمله هذا لم يكن يرضي سماع الموت المجرمين، لذا هددوه، لأنه كان يفكك ذنوبهم في الوقت الذي كانوا هم يجمعون احقادهم ويوقتونها كي تنفجر في وجهه، وعلى الرغم من علمه المسبق اثر هاتف ليلي اتاه منهم قفز في الصباح التالي ليلبي النداء فقبل (محمد) في جبينه قبلة طويلة هي اشبه بوصية اب قبل الفراق، وصية ادرك فحواها الصغير حين قفز من النوم بعد ساعة على صوت انفجار بعيد، انفجار دوى في اعماقه فلم يسمعه احد في البيت سواه ثم اغرق في بكاء طويل ناشج على غير عادته. لم تفهم الام سر البكاء لكن دموعها انهملت من عينيها رغما عنها وشمّت في محمد الذي ارتمى في احضانها رائحة (مصلح)، ومرت الدقائق ثقيلة بثقل الحزن المبهم لترتفع بعد قليل صرخات بعيدة راحت تقترب وتشتد كأنها نار تقوى وترتفع كلما اقتربت منهما، انخلع قلبها من مكانه ولم تعد ساقاها قادرتين على حملها كي تطل على الزقاق، ولأول مرة يشهد الزقاق عويلا وبكاء شمل النساء والرجال من الجيرة والاصدقاء والاقرباء، بطريقة لم يشهد الزقاق ولا المدينة مشهدا موازيا لها على الرغم من مرور حربين طاحنتين اخذت الكثير من شبابها، فهنا الأمر مختلف. وهنا الحزن مختلف. لأنه كان حزنا يخص فقيداً احبه الجميع، مختلفا، بطلاً حقيقيا في زمن مضطرب ومليء بالزيف وبحب الذات (محمد) لا ينام منذ ان فقد توأم روحه، وإذا نام فانه يفز مذعورا ليقص على عمه انه رأى اباه في المنام وهو طائر يدعوه ليطير معه، وفي الصحو ايضاً صار محمد يرى اباه طيراً ابيض اللون ينقر الشباك كي يدخل الغرفة.

اكتب هذه الكلمات على سبيل التحية المتواضعة للشهيد مصلح قدوري ويس السامرائي من مواليد (1964) وهو نقيب في الشرطة حصل على اجازة مرضية لمدة عشرين يوما لكنه لم يتمتع بيوم واحد منها دون ان يطرق بابه لتفكيك عبوة ناسفة في مكان ما من ارض ديالى الطيبة لكن الاوغاد قاموا بتفجير العبوة بطريقة التحكم من بعد وبهذا نفذوا وعيدهم بالانتقام ونفذوه وعده بالموت من اجل سلامة الآخرين. لم يكن الشهيد يشبه ايا من شرطة العهد البائد لانه كان يمتلك ضميراً خالصا وحسا مفرطا بإنسانيته وبحبه للناس. لذا كان يقوم بتفكيك الالغام وجميع العبوات الناسفة حتى بدون أوامر رسمية وقد شهد جميع من تعاملوا معه انه كان يقوم بتفكيك الالغام التي تخلفت عن الحرب العراقية الايرانية في مزارع جلولاء وغيرها كي يمنع الموت عن الآخرين وكي تعود للارض خضرتها، وقد سمعت بأن ثمة بطولة بكرة القدم اقيمت باسمه كنوع من التخليد لهذا الشهيد، لكنني ارى ان هذا وحده غير كاف وان البطولة المثلى هي في القضاء على اولئك القتلة الذين اغتالوه، القتلة الذين لن يتوقفوا حتى يتم اجتثاثهم من الجذور، ليعيش محمد وأقرانه من ابنائنا بسلام.